العولمة وأزمة الهوية: قراءة نقدية فى تراث علم الاجتماع المعاصر

العولمة وأزمة الهوية: قراءة نقدية فى تراث علم الاجتماع المعاصر

علي جلبي(*)

ملخص:

تهدف الورقة إلى التعرف على إذا ما كانت العولمة نتاج تحولات أم نتاج أيديولوجية، هل تعمل العولمة على تهديد الهويات وبخاصة الهويات الثقافية، وما هي أهم الهويات في العالم، وتعتمد الورقة على نظرية العولمة – مع موجاتها الثلاثة – كخلفية نظرية للوصول إلى إدراكات مستبصرة تتعلق بالعلاقة بين الهوية والعولمة. وفي هذا السياق، تطرح مجموعة من الافتراضات حول إذا ما كنا بحاجة إلى الانتقال من الإقصاء الاجتماعي إلى الاندماج الاجتماعي. كما تؤكد أهمية التمكين الاجتماعي للفئات الاجتماعية للفقراء والشباب والمهمشين. وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها: أن العولمة ليست أيديولوجية، وإنما هى عملية إعادة بناء موضوعى لكل من الاقتصاد الثقافات والنظم والمجتمعات. وتعمل العولمة على الاستبعاد والإدماج فى الوقت نفسه، إدماج كل شيء له قيمة واستبعاد كل ما ليس له قيمة، وأكدت على أن عولمة رأس المال أو التجارة العالمية لا تعتمد على وجود التكنولوجيا أو ريادات الأعمال فقط، وإنما يعتمد تحقق الطابع الكونى على مبادرات الدول القومية فى تحرير الاقتصاد وإزالة الحدود.

الكلمات المفتاحية: العولمة، الهوية، المجتمع الكوني والمحلي، علم الاجتماع.

مقدمة:

(*)أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

شهد العالم فى عشرات السنين الأخيرة عمليتين متوازيتين تتعايشان معًا، العولمة من ناحية وتأكيد الهويات الثقافية المتباينة من ناحية أخرى. وترتبط كلتا العمليتين ببعضهما، فكما ترتبط عملية تحقيق التجانس الثقافى عادة بالعولمة، فإن العولمة تنطوى على تهديد للثقافات المحلية ولهويات معينة، وقد بزغ مع هذا الخوف فقد المرجعيات الثقافية التى تدعم هويات الناس، الأمر الذى كان من نتائجه نشوب الصراعات والنزاعات حول الهويات المحلية والإقليمية.

ويذهب مانيول كاستلز M.Castells فى هذا الصدد أن العمليتين تحدثان فى الوقت نفسه وهو تزامن غير تاريخى، وبالرغم من أنهما تحكمهما علاقة نسقية، فإنها لا تزال علاقة غامضة تحتاج إلى توضيح. فمن ناحية افترض البعض أن العولمة تتطلب ثقافة كووزموبوليتانية، وتبلورت منظورات مختلفة، يتحدث بعضها عن عمليات التوحيد والتجانس الثقافى للعالم كنوع من النقد لهذه العملية. ومن ناحية أخرى أكد البعض مبدأ الخصوصية الثقافية والعودة إلى الهوية التاريخية للأسلاف، التى يصعب أن تندمج فى الثقافة العالمية، أو الثقافة الواحدة التى ينتمى إليها الجنس البشرى (M. Castells, 2010).

وهكذا أصبحت قضية العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية واحدة من الاهتمامات ذات الأبعاد المتعددة والمعقدة التى شغلت الباحثين على الأخص فى علم اجتماع العولمة، لأن التحديث والعولمة يُحدثان تحولات أساسية فى جذور وبناء الهوية وقيم الأسرة والمجتمع المحلى والأمة والجغرافيا، وكذلك فى قيم الوسط الكونى (A,Naz, et al, 2011).

وتهدف الورقة الحالية إلى تسليط الضوء على العلاقة بين العولمة والهوية، على نحو يسهم فى زيادة استبصارنا وفهمنا لها، ويطرح قضايا جديرة بالبحث فى المستقبل. وذلك من خلال الإجابة عن عدة تساؤلات:

1- هل العولمة أيديولوجية أو تحولات متعددة؟ وهل تعمل على الاستبعاد أكثر من الاندماج؟

2- هل هناك خوف من تهديد العولمة للهويات الثقافية؟

3- ما أهم أشكال الهويات فى العالم؟

4- ما الاستجابات المتباينة التى أثارتها فكرة العولمة الثقافية؟ وكيف عبرت عن أزمة الهوية؟

5- ما الوسائل الخلاّقة فى التعامل مع العولمة وتجنب التهميش فى العالم العربى؟

وتستعين الورقة بما توافر فى تراث علم اجتماع العولمة من نظريات ومفاهيم، وما تقدمه الموجات الثلاثة لنظرية العولمة (المتحولون والمتشككون والتحوليون) من تفسير للمواقف المتناقضة من قضية العلاقة بين العولمة والهوية، وتعتمد فى هذا الصدد على مفاهيم مثل مركب الهوية، والجمع بين الكونى والمحلى، كما تستفيد من هذه المفاهيم فى معالجة أزمة الهوية، وكأداة لنقد التيار السائد بين الباحثين فى العالم العربى الذى يدعم النتائج السلبية للعولمة على الهوية الثقافية العربية وطرح تصور يوضح كيفية التعامل الخلاق مع العولمة فى المستقبل. وتمثل الورقة دراسة استطلاعية تعتمد إلى حد كبير على منهج إعادة التحليل، وقراءة ماتوافر فى التراث والدراسات السابقة فى علم اجتماع العولمة حول هذه القضية. وتنقسم الورقة إلى عدة محاور:

الأول: يعرض الاطار التصوري للعلاقة بين العولمة والهوية.

الثانى: يركز على أزمة الهوية والمواقف المتناقضة فى التراث من هذه العلاقة.

الثالث: يقدم توضيحًا للوسائل الممكنة فى التعامل الخلاق مع العولمة.

وينتهى البحث بخاتمة، تبلور مجموعة استنتاجات تجيب عما أثير من تساؤلات وتطرح خيارات للمستقبل.

أولاً: المفاهيم والإطار التصورى للعلاقة بين العولمة والهوية:

يستفيد البحث من نظرية العولمة وموجاتها المختلفة، ويستعين بمجموعة من المفاهيم الأساسية؛ ربما كان أهمها مفهوم العولمة، والجمع بين الكونى والمحلى والهوية ومركب الهوية.

1- العولمة: *Globalization*

يصعب حصر محاولات تعريف العولمة فى تراث علم الاجتماع، ونتوقف هنا أمام بعضها إذ يذهب مانويل كاستلز إلى أن العولمة ليست أيديولوجية بقدر ماهى عملية إعادة بناء موضوعى لكل من الاقتصاد والثقافات والنظم والمجتمعات، وتشير العولمة فى الاقتصاد إلى نموذج من الاقتصاد يعتبر كونيًا؛ لأن نشاطاته الجوهرية (رأس المال وأسواق المال) قادرة على العمل بوصفها وحدة في الوقت نفسه ويوميًّا. وهو اقتصاد فى جوهره كونيّ لأن أسواق المال فى حالة اعتماد كونى فيما بينها، وكذلك رأس المال والتجارة العالمية، وإنتاج السلع والخدمات، والشركات متعددة الجنسيات كلها فى جوهرها كونية، مع أنه ليس كل شئ يعتبر كونيًا، فمثلاً القوة العاملة ليست فى معظمها كونية، لأن الشركات متعددة الجنسيات لا تستخدم إلا حوالى 200 مليون فقط من العمال، وذلك من إجمالى القوى العاملة فى العالم التى تقدر بحوالى 300 ألف مليون. وكذلك يعتبر كل من العلم والتكنولوجيا بوصفهما أساسًا لنمو الثروة والقوة، عناصر كونية، حيث تشكلت شبكات للعلم والتكنولوجيا في جميع أنحاء العالم. وتعتبر الاتصالات أيضًا كونية، وهناك سبع مجموعات كبرى للاتصالات تتحكم فى إنتاج 50% من المادة المرئية والمسموعة أو إذاعة الأخبار، وهذا لا يعنى أن الثقافة والاعلام فى جملتهما قد أصبحا كونيين، لأن هناك ماهو خاص ومحلى فى كل ثقافة (M. Castells, 2010).

وقد أسهمت عملية العولمة فى نمو مجموعة من النظم الدولية تتحمل مسئولية إدارة المشكلات التى تمثل منفعة عامة كونية، وهذا ماحدث فى مجال البيئة والتعامل مع حالة الدفء الكونية وآليات تجنبها، وأصبحت كل الأساليب ووسائل التحكم فى البيئة

من قبيل النفع العام الكونى. وتمثل حقوق الإنسان مجموعة قيم كونية تم التوقيع عليها كونيًّا وعالميًّا، ولقد أصبحت علاقة الاعتماد المتبادلة بين الأمم والبلدان والمجتمعات ظاهرة واضحة. والعولمة الحالية ليست هى العولمة السابقة نفسها؛ لأنها بنيت على تكنولوجيا الاتصال والمعلومات التى عملت على تجاوز واختفاء المسافات بين البلدان، والعولمة فى الوقت نفسه تعمل على الاستبعاد والإدماج، فهى تعمل على إدماج كل شيء له قيمة وتستبعد كل ماليس له قيمة، ولذلك فالعولمة الاقتصادية بالتحديد تعد عملية انتقائية، وهذا مايدفع الدول والحكومات ونشاطات الأعمال فى كل البلدان إلى الانخراط فى هذه الشبكة الكونية، لأن الوجود خارجها يعوق النمو، والتنمية، وتوليد الثروة. كما يعنى غياب إمكان الاستثمار فى رأس المال والتكنولوجيا عن أى بلد، أو إقليم أو قطاع، زيادة احتمالات تهميشه عن الاقتصاد الكونى. ورغم أن هذا النوع أو النمط من العولمة الاستبعادية، قد وجد معارضة من جانب الرأى العام، فإنه لا يمكن القول بأن العولمة سلبية كلها، لأنه في حين تخلفت قطاعات أساسية فى كثير من المجتمعات عن عملية العولمة، إلا أن هناك قطاعات أخرى كثيرة استفادت من هذه العولمة على نحو يفوق المعتاد. وقد تكون العولمة إيجابية فى المجالات الاقتصادية، ولكنها سلبية فى المجالات البيئية مثلاً (M. Castells, 2010).

ولكى تتمكن الدول من إدارة العولمة وتنخرط فى شبكاتها كان عليها أن تعمل على تشجيعها بالفعل، لأن عولمة رأس المال أو التجارة العالمية لا تعتمد فقط على وجود التكنولوجيا أو استراتيجيات الأعمال لكى يتحقق الطابع الكونى، وإنما يعتمد ذلك أيضًا على مبادرات الدول القومية فى تحرير الاقتصاد أو التفكيك أو إزالة الحدود. وتمثل الدول الفاعل الأساسى فى عمليات التحرر والعولمة. ولقد شكل الاتحاد الأوربى شكلاً جديدًا من الدولة التى تعتمد على حكومات دولها القومية، لتعمل معًا على نحو أو آخر، وتتفاوض بشكل مستمر، وتتقاسم السيادة حتى تتمكن من الحفاظ على مستوى معين من الاستقلال فى علاقتها بالشبكات الكونية لرأس المال والتكنولوجيا والتجارة العالمية والإعلام .. ونشأ عن ذلك بناء فوقيّ من النظم العالمية، كالناتو، ومنظمة الصحة

العالمية، ومفوضية البيئة وغيرها، وفى هذه الشبكة تُتخذ القرارات السياسية وتجرى المفاوضات وتتم الإدارة وكل مايشير إلى أن الدول القومية لم تختفِ مع العولمة، ولكن كان عليها لكى تبقى أن تتنازل عن بعضٍ من سيادتها (M. Castells, 2010).

2- الجمع بين الكونى والمحلى: Glocalization

يذهب التحوليون من أنصار الموجة الثالثة فى نظرية العولمة، مثل هيلد وهاس ومارش إلى أن العولمة ظاهرة جديدة، وفى الوقت نفسه تعتبر عملية تاريخية طويلة المدى، ويصعب أن تزيل كل مايقف أمامها، وأنها تنطوى على تحولات عميقة تشكل قوى دافعة مركزية تقف وراء التغيرات التى تعيد تشكيل العالم، وأنها تخلق صورًا جديدة من الثقافة تجمع بين المحلية والكونية. وكذلك أخذت النشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية تضرب بجذورها فى المحلية والعالمية. وهناك جوانب من الثقافة القومية (فى الإعلام والسينما والدين والطعام والموضة والموسيقى) تختلط مع مدخلات من مصادر دولية، ولم تعد الثقافة القومية منفصلة عن الثقافة الدولية. فقد تبدأ بعض نماذج الموسيقى فى تجمع محلى، ولكنها تنفصل عنه، بعد أن يتم عزفها على نطاق كونى. وهكذا تخلق العولمة صورًا جديدة من الثقافة تجمع بين المحلية والكونية. ولم يعد هناك خوف من تهديد العولمة للهويات الثقافية (L. Martell, 2007).

3- الهوية Identity

ربما كان مصطلح الهوية من المصطلحات التى أُلصق بها معانٍ كثْيرة؛ حيث يعتبرها رامينس (1993) طابعًا متميزًا ينتمى إليه الفرد، أو يتقاسمه مع كل أعضاء جماعة أو فئة اجتماعية. ويذهب هورويتس (2000) إلى أن الهوية الثقافية هى هوية جماعة أو ثقافة أو فرد معين، مادام هذا الفرد يتأثر بانتمائه إلى الجماعة أو الثقافة التى ترتبط بمنطقة جغرافية معينة، حيث يتقاسم السكان كثير من السمات المشتركة مثل اللغة والدين والثقافة، وتعتبر الهوية نسقًا اجتماعيًا يعمل شأنه شأن النسق العضوى، ويتشكل من بناء وقيم ثقافية وقواعد ومعتقدات وممارسات من المتوقع أن يمتثل لها هؤلاء

الأعضاء، وذلك كله فيما يرى جونز (2005)، أما دنج (2005) فإنه يذهب إلى أن الهوية الثقافية تجيب عن تساؤلات من أمثلة من أنا، أين أنا .. إلى أين أذهب، ماذا نملك فعلاً؟ مادام الناس يتصورون هوياتهم من خلال ثقافاتهم التى سوف تعرفهم وتحددهم (A,Naz, et al, 2011). وعمومًا، تعتبر الهوية فى العلوم الاجتماعية عملية التى تسهم فى تشكيل أو بناء المعنى لما يفعله الناس فى حياتهم أو يشعرون بكيانهم ويشيرون إلى شئ ما أكثر من أنفسهم. ورغم أن هذا المفهوم يعتبر ثقافيًا فلا يمنع من أن يكون فرديًا، لأن الفردية تمثل شكلاً من أشكال الهوية، وذلك كما توضحه عبارات " أنا البداية والنهاية لكل شئ أو أسرتى، وأنا البداية ونهاية كل شيء .. ومهما كانت أشكال الهوية، فالمؤكد أن الهوية يتم تصورها بنائيًا من خلال الخبرة الشخصية ذات الكثافة التاريخية والثقافية واللغوية والإقليمية. وفى ضوء ذلك يمكن التمييز بين ثلاثة نماذج من الهوية نستطيع ملاحظتها فى الواقع. أولها: نموذج الهوية الشرعية الذى يتم بناؤه تصوريًا من خلال الدولة ونظمها ومثال ذلك الهوية الفرنسية، والجهود كافة التى أسهمت فى تشكيل نموذج المواطن الفرنسى بوصفع نموذجًا ثقافيًا، ومثاله أيضًا جهود الأمة الأمريكية وكيف بنت تصوريًا هوية قومية لا تقوم على مبادئ تقليدية، وإنما استندت إلى عناصر أساسية من التعددية الثقافية والإثنية التى أقرها الدستور. وأطلق على النموذج الثانى للهوية مصطلح الهوية المقاومة **Resistance** ، وهى نموذج للهوية يشعر معه الجميع أنهم مرفوضون ثقافيًا أو اجتماعيًا أو سياسيًا ويعانون من ردود فعل تهميشية. وقد تعمل العولمة على جعل جماعات اجتماعية معينة تقاوم، لأنهم كمواطنون يمثلون أقليات ، بمعنى أنه ليس لهم حقوق تمثلهم. ويطلق على النموذج الثالث للهوية ، الهوية المشروع **Project Identity.**

وقد يتم تصورها بنائيًا استنادًا إلى التوحد بعناصر إقليمية أو تاريخية أو ثقافية معينة، مثال ذلك الحركات النسوية أو الإيكولوجية وغيرها، وهذه النماذج الثلاث للهويات مختلفة جوهريًا عن بعضها، ومن الخطأ الاعتقاد أنه من السهل الانتقال أو التحول من واحد منها إلى الآخر فهى هويات تنغلق على ذاتها (**M. Castells, 2010**)

وتزيد نظرية الهوية الاجتماعية عند كل من هنرى جاقل وجون تيرز الأمر وضوحًاْ وفهمًاْ للأسس النفسية والاجتماعية لأشكال التمييز بين الجماعات، وتفسير الأشكال الجديدة من الانتماءات التى أخذت تتزايد فى العقود الأخيرة. ويذهبان إلى أنه لما كانت الثقافة تمثل عنصرًا مهمًّا فى تشكيل الهوية، اتجهت الأنظار نحو تشكيلات عديدة للهوية أحدها هوية ثقافية، والثانية هوية اجتماعية، والثالثة هوية سياسية. ويقصد بالهوية الثقافية هوية الجماعة أو الشخص أو الثقافة، مادام الإنسان يتأثر بانتمائه إلى جماعة أو ثقافة ما، وأن الهوية الثقافية تماثل الهوية السياسية وتتداخل معها، ولكنها ليست مرادفة لها. وتنطوى الهوية الاجتماعية على أربعة عناصر أو عمليات؛ طبقًا لنظرية الهوية الاجتماعية هذه، أولها: عملية التصنيف لفئات؛ إذ غالبًا ما يميل الناس إلى وضع أنفسهم والآخرين فى فئات، وتسمية بعضهم بعضًا فى مقولات (المسلمون والأتراك والإنجليز ولاعبو الكرة ... إلخ) بطرق تدلل على أفكار تخص هؤلاء الأفراد. وثانيها: الانتماء ، حيث يميل الناس أيضًا إلى ربط أنفسهم بجماعات معينة (داخلية وخارجية) على نحو يسهم فى عملية تعزيز التقدير الذاتى، وثالثها: المقارنة؛ حيث يتجه الناس إلى مقارنة جماعاتهم بجماعات أخرى، والتعبير عن تفضيلاتهم المتحيزة تجاه الجماعة التى ينتمون إليها، وهو أمر يتضح فى الآونة الأخيرة بين جماعات الشباب، ورابعها: التمييز السيكولوجى، حيث يرغب الناس فى أن تكون لهم هوية متميزة عن هويات الجماعات الأخرى بشكل إيجابى (Culture Identity, Wikipedia).

(4) مركب الهوية الاجتماعية Social Identity Complexity

ومع زيادة الاعتراف بأن الأفراد ينتمون إلى جماعات اجتماعية متعددة، لكل منهم هوياتهم الاجتماعية المختلفة، أثير تساؤل حول الكيفية التى يمكن بها للأفراد الجمع بين هذه الهويات، فى الوقت الذى ينحصرون داخل جماعاتهم الداخلية. وهنا تقدم نظرية روكاس وبروير (2002) مفهوم مركب الهوية الذى يمثل افتراضًا نظريًا يفسر كيف أن مركب الهوية الاجتماعية يعكس الدرجة التى يتداخل ويوجد بها الشخص فى

جماعات متباينة، فى الوقت الذى يتمتع فيه بالعضوية فى جماعته الداخلية. وأن العضوية فى جماعات اجتماعية كثيرة ومتباينة (وهويات اجتماعية متعددة) يمكن أن يشكل مركب هوية اجتماعية أكبر، ويمكن بالتالى أن يعزز ويدعم نمو هويات اجتماعية كونية. وتبدو أهمية افتراض مركب الهوية لصالح الانفتاح على التغير والقيم الكونية والتقليل من النزعات المحافظة والمتسلطة ، وتدعو إلى المزيد من التسامح ومصالح التنوع. ولذلك يعد مركب الهوية الاجتماعية عاملًا حاسمًا يمكن التعويل عليه وأخذه فى الاعتبار عند تطبيق النماذج السيكولوجية التى تفيد فى التقليل من ميول واتجاهات التحيز والتعصب فى داخل المجتمع (**Social Identity complexity, Wikipedia**).

ثانياً: أزمة الهوية والمواقف المتناقضة فى التراث من العلاقة بين العولمة والهوية:

يذهب (راجية) (**2001**) إلى أن فكرة العولمة الثقافية قد استثارت استجابات متعددة وعكست مضامين متناقضة، جسدت مايعرف باسم أزمة الهوية. لأن البعض يفهم هذه الظاهرة على أنها أداة لإقامة وحدة عالمية ديمقراطية مبنية على ثقافة كونية ثم التعبير عنها بمصطلح القرية الكونية، التى وسعت من نظم الاتصال. بينما لا يوافق فريق آخر من الباحثين على ذلك، ويزعم أن العولمة لم ينجم عنها هوية اقتصادية وسياسية موحدة وإنما عملت العولمة الثقافية على تحطيم وهدم الهويات القومية، وأن العولمة الثقافية التى يشهدها اليوم ليست إلا محصلة لمساعى البشرية وخبراتها، وأنها لم تستفد من التنوع الثقافى، بقدر ماتمثل أحد مظاهر السيطرة والهيمنة لثقافات معينة ذات قوة زائدة (**A,Naz, et al, 2011,**).

وهكذا توافر فى تراث علم اجتماع العولمة ودراسة العلاقة بين العولمة والهوية قائمتان أثنتان للرأى؛ إحداهما تركز على التداعيات السلبية للعولمة على الهوية، والثانية؛ تهتم بالتداعيات الإيجابية.

1- العولمة وتداعيات السلبية على الهوية:

تعمل العولمة على نقل السمات الثقافية من مجتمع إلى آخر، مما يتسبب فى إصابة الثقافة المحلية بالاضطراب كما يذهب إلى ذلك بومان (1996). كما أن العولمة تعمل على خلق ثقافة كونية فيها تندمج الهوية التى تميل إلى تحقيق الثقافة المتجانسة فى كل أرجاء العالم وما قد يساعد المعتقدات والقيم الثقافية المحلية، إلى أن تكون أكثر عالمية. ويعتبر هذا الغزو الثقافى تهديدًا قد يتسبب فى مشكلات خطيرة بالنسبة للدول المحافظة، لأن الانفتاح على سياق أجنبى يمكن أن يُحدث تآكلاً للقيم التقليدية والهوية الثقافية الأصلية. ويذهب (دالبى) (2007) إلى أن العالم سيتغير فى جملته من خلال العولمة ويتحول إلى مكان واحد وثقافة واحدة وهوية وحيدة. ويتم تغذية كل مايميز الثقافة والمجتمع فى اتجاه ثقافة كونية متجانسة. ويضيف مارشال (2005) أن العولمة تحدث تعددية ثقافية تتسبب فى وجود صراع ثقافى بين السمات الثقافية المحلية، وبين تلك السمات التى تنتشر بفعل الثقافة الغربية. ورغم أن العولمة تعمل على تحقيق التكامل فإن الصراع الثقافى هو الشكل الأكثر انتشارًا الذى عملت العولمة على تعجيله. وكان ريتزر (2000) قد أشار إلى تهديد العولمة للتضامن الاجتماعى وكيف أنها أحدثت تغيرات فى العواطف الجمعية التى يبديها أى مجتمع وما يؤدى إلى الفردية وانتشار ثقافة المجتمع الغربى المهتمة بالسوق. بينما ذهب كوشلر (1986) إلى أن العولمة ما هى إلا مجرد صورة أخيرة للامبريالية الغربية، والتى تعنى تحكم مجتمع واحد على آخر من خلال الثقافة والسياسة و الاقتصاد. والعولمة بوصفها أداة أيديولوجية نظر إليها على أنها أداة قاسية فى أيدى مراكز القوة فى العالم الصناعى لغرض الهيمنة الكونية من خلال الليبرالية الاقتصادية والاستعمار الجديد على بقية بلاد العالم تدريجيًّا (A,Naz, et al, 2011).

وإذا كانت هذه الآراء تركز على التداعيات السلبية للعولمة، وقد ظهر أغلبها فى الفترة مابين (986 – 2007) فربما لأنها آراء تنطلق من الموجة الأولى فى نظرية العولمة، والتى عبر عنها المتعولمون الذين نظروا إلى العولمة باعتبارها تكنس كل شئ فى طريقها.

2– العولمة وتداعياتها الإيجابية على الهوية:

وفى هذا الصدد ومن منظور العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية ذهب هاوس (1966) إلى أن الهوية الثقافية لا يحتمل أن تكون فريسة سهلة للعولمة، ذلك لأن الهوية ليست فى الواقع مجرد رابطة ذاتية ومجتمعية هشة، وإنما هى بعد مهم وهائل فى الحياة الاجتماعية والنظم المتأصلة فى شروط الحداثة.

وهناك عدد من المحللين للعلاقة بين العولمة والهوية، من أمثال تيلو (2001) وكوران (2001) ودوتيك (2004) وغيرهم من بين من اهتموا بالمراجعة النقدية لفكرة أن العولمة الاقتصادية تدعم الصراع الثقافى، قد زعموا أن الصراعات الثقافية توجد تقريبًا فى كل مجتمع سواء كانت خبراته بالعولمة واسعة أو محدودة، وأنه فى الواقع يحتمل أن يكون لمثل هذه الصراعات تأثير أقل أو يندر أن يكون لها آثار مهلكة خاصة فى المجتمعات التى تنفتح على العولمة (A,Naz, et al, 2011).

والواضح أن هذا الفريق من الباحثين الذين طرحوا آراءهم فى الفترة من (1996 – 2004) يعبرون عن موقف التحوليين من أتباع الموجة الثالثة فى نظرية العولمة، التى أحلت مفهوم الجمع بين الكونى والمحلى Glocolization محل مفهوم العولمة.

ولكن للأسف ظل هجاء العولمة والتحذير من مخاطرها على هويتنا الثقافية وعلى مصالحنا الاقتصادية هو المعلم الأساسى للخطاب وأسلوب التفكير اللذان يهددان العرب بمزيد من التراجع، وظل يمثل الاتجاه الأعلى صوتًا والأكثر ضجيجًا فى أغلب المحافل العربية، وذلك نتاج للمنهج الذى ينظر إلى العالم من ثقب الصراع مع الغرب ويختزله فى كتلة مصمتة يزعم أنها كلها معادية لنا وتتآمر عليها.

ففى دراسة (للجابرى) عن "العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمى والخطاب الايديولوجى ، تعريفات ومقارنات"، يذهب إلى أن العلاقة بين العولمة ومسألة الهوية ليست من العلاقات البسيطة، بل هى علاقة تنطوى على مشاكل عديدة مترابطة منها مايخص ظاهرة العولمة نفسها، ومنها ما يخص مسألة الهوية، ومنها مايخص العلاقة بينهما، وقد تبدو إشكالية العولمة ومسألة الهوية مثل النظرية التى لم تتوفر إماكنية

صياغتها فهى توتر ونزوع نحو النظرية أو نحو الاستقرار الفكرى. والعولمة ترجمة لكلمة Globalization التى تفيد فى معناها اللغوى التعميم؛ تعميم الشيء وجعله شاملاً، وترتبط العولمة بهدفها الاستراتيجى أعنى تصميم نمط من الحياة على الكرة الأرضية كلها وهى عملية تتم خارج إرادتنا، والعولمة بما أنها تصميم فهى تهدد الهوية، كما تهدد الأصالة، فالعولمة إذن نفى للوطن وإلغاء له والوطن هو مجال الهوية والأصالة (الجابري، محمد عابد، 2013).

ويقول (صادق جلال العظم) فى مقاله "ما العولمة؟" إنها عقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء فى ظل هيمنة دول المركز بقيادتها وتحت سيطرتها وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ. ورأى (محمد الأطرش) أن العولمة تعنى بشكل عام اندماج أسواق العالم فى حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوى العاملة والثقافات والتقانه ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، وبالتالى خضوع العالم لقوى السوق العالمية ، مما يؤدى إلى اختراق الحدود القومية وإلى الانحسار الكبير فى سيادة الدولة، وأن العنصر الأساسى فى هذه الظاهرة هى الشركات الرأسمالية الضخمة متخطية القوميات. أما المفكر (برهان غليون) فيرى أن العولمة تتجسد فى نشوء شبكات اتصال عالمية تربط جميع الاقتصاديات والبلدان والمجتمعات وتخضعها لحركة واحدة، وعمومًا هناك نزعة إلى الهيمنة الثقافية تجعل الهويات المختلفة التى عادة ماتعبر عن خصوصيات ثقافية راسخة نتيجة عمليات التراكم التاريخى فى مواجهة مباشرة مع العولمة، والوطن العربى ليس بمنأى عن هذه التأثيرات التى تهدد هويته وتجعلها عرضة لمختلف المخاطر الناتجة عنها (محمود، سمايلى، وسعيد، بن عماره، 2013).

وهذا منهج فى الحديث عن الهيمنة يغفل أن العرب يعانون خطرًا أكبر هو خطر التهميش، ذلك لأن هويتنا أقوى من أن تتآكل وثقافاتنا أكثر صلابة من أن تذوب، ولم يتمكن الاستعمار الاستيطانى من تذويب هوية أو ثقافة الفلسطينيين أو الجزائريين مثلاً. واستمرار إدارة علاقتنا مع العالم وفقًا لمنهج الهجاء والتنديد والإدانة لم يعد يثمر نتائج

إيجابية. ولذلك علينا أن نبحث عن بديل لهذه الرؤية التقليدية؛ ولتكن رؤيتنا فى تعاملنا مع العلاقة بين العولمة والثقافة منحازة إلى جانب الاتجاه العقلانى الذى يفرض علينا البحث عن العوامل والمشكلات التى تكرس التهميش الذى يهددنا (جلبى، على عبد الرازق ، وأحمد، هانى خميس، 2011)

ثالثًا: وسائل خلاقة فى التعامل مع العولمة:

لم تعد هناك ضرورة للخوف من العولمة على الثقافة، أو الهوية الثقافية، خاصة بعد توافر مصادر متعددة تدلل على أن هناك استمرارية فى الهويات وخاصة الهويات التى تشكلت على أساس ثقافى، باعتبارها عنصرًا جوهريًا للمعنى لدى الناس. إذ تدلل بيانات المسوح المختلفة التى أجريت عن فترات زمنية مختلفة، ومن أهمها بيانات المسح العالمى للقيم الذى يجريه (رونالد إنجليهارت)، تدلل على استمرارية هذه الهوية. أضف إلى ذلك نتائج تحليل (نورس) لبيانات أخذها عن هذا المسح على مرحلتين بداية ونهاية عام 1990، وقارن فيها بين هويات على مستوى العالم فى المجالات الإقليمية والقومية والمحلية، فوجد أن نسبة الذين يعتبرون أنفسهم مواطنين عالميين (كوزمو بوليتان) لا تزيد عن 13 %، أما نسبة من يعتبرون أنفسهم من هوية قومية فبلغت 38% ، وتشكل النسبة الباقية أو الأغلبية أولئك الذين يعتبرون أنفسهم من هوية محلية أو إقليمية. وعندما تمت مقارنة البيانات طبقًا للمناطق الجغرافية، وجد أن المنطقة التى يسود فيها الهوية الإقليمية هى الأعلى وبلغت 61%، مما يدلل على استمرارية وقوة هذه الهويات (M. Castells, 2010).

إذن الخطر المهم هو خطر التهميش، وهو الذى يتطلب منا البحث عن وسائل خلاقة للتعامل مع العولمة تجنبنا هذا الخطر. وربما احتاج ذلك إلى رؤية غير تقليدية تستفيد من التجارب العالمية الناجحة، وخاصة النموذج اليابانى لأن اليابان من الشعوب التى لم تخش العولمة أو تخف منها، بل تفاعلت معها، ولم يتأثر اليابانيون فى خصائصهم الثقافية بالغرب، بل وساعد إنجازهم الاقتصادى على توليد الثقة، وبزوغ النموذج اليابانى بالاعتماد على توجهات خاصة تركز على المصلحة الوطنية من منظور

جماعى، فالتصق اليابانيون بالمصلحة الوطنية وحافظوا عليها فى كل مراحل مواجهاتهم لتحديات التنمية وتحديات التنافسية الدولية، من خلال توجهات جماعية وطنية أصيلة مرنة. ويمكن لمسيرة التعامل مع العولمة فى عالمنا العربى أن تستلهم إيجابيات هذا النموذج وغيره، ولكن ذلك يتوقف على دور الدولة القومية. وفى ضوء ما تأكد وانتهت إليه الموجه الثالثة لنظرية العولمة (التحوليون)، أن الدولة القومية لم تختف بعد، بل إن احتفاظ الدولة بقدر معقول من القوة يساعدها على الاندماج فى المجتمع الدولى مع غيرها من دول وزيادة نصيبها من الاستفادة من فرص العولمة.

وربما كانت أهم مشاكل العرب فى تعاملهم مع العالم، هى مشكلة المعرفة لأن المعرفة أصبحت هى الأساس الأول فى توليد الثروة والنمو، والتحدى هنا هو مدى القدرة على استيعاب المعرفة العالمية المعاصرة، فى التكنولوجيا والاقتصاد والعلم. وفى خضم الطلب على مجتمع المعرفة صار لزامًا على الدول العربية أن تعيد تقييم أوضاعها العلمية والتكنولوجية بهدف التغلب على مشاكل ومخاطر التهميش، لأن المعرفة والدراسة فى المجالات العلمية والتكنولوجية تمثل قاعدة أساسية للتنمية، خاصة وأن هناك مؤشرات على تدنى معدلات القيد فى هذه المجالات ، أضف إلى ذلك تراجع التمويل وتزايد المشكلات البيروقراطية فى مجالات البحث العلمى، وتضاؤل الاهتمام بالصناعة والاستثمار فى الصناعات التكنولوجية المتقدمة. فإقامة مجتمع المعرفة، هو الذى يسمح بالاندماج فى العالم والاستفادة من الفرص والمزايا التى توفرها العولمة، ومن ثم يعمل على تجنب خطر التهميش (جلبى، على عبد الرازق ، وأحمد، هانى خميس، 2011).

خاتمة:

ربما كان من الضرورى التوقف فى هذه الخاتمة عند بعض الاستنتاجات التى قد تجيب عن بعض التساؤلات المطروحة فى البداية، وتثرى فهمنا للعلاقة بين العولمة والهوية، وتتمثل في:

1- أن العولمة ليست أيديولوجية، وإنما هى عملية إعادة بناء موضوعى لكل من الاقتصاد والثقافات والنظم والمجتمعات. وتطور نموذج كونى للاقتصاد جعل نشاطاته الجوهرية قادرة على العمل بوصفها وحدة متزامنة، وفى حالة اعتماد متبادل، وتشكلت شبكات للعلم والتكنولوجيا كأساس لنمو الثروة والقوة على أساس كونى، ونمت نظم دولية ذات منفعة عامة دولية، وأصبحت علاقة الاعتماد المتبادلة بين الأمم والبلدان والمجتمعات ظاهرة واضحة، وعززت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من تجاوز واختفاء المسافات بين البلدان.

2- وتعمل العولمة على الاستبعاد والإدماج فى الوقت نفسه، إدماج كل شيء له قيمة واستبعاد كل ماليس له قيمة، الأمر الذى دفع الدول والحكومات إلى الانخراط فى هذه الشبكة الكونية، لأن الوجود خارجها يعوق توليد الثروة والنمو والتنمية. أضف إلى ذلك أن غياب الاستثمار فى رأس المال والتكنولوجيا عن أى بلد أو قطاع، يزيد من احتمالات تهميشه عن الاقتصاد الكونى. وبينما تخلفت قطاعات أساسية كثيرة فى بعض البلدان عن عملية العولمة، فهناك قطاعات أخرى كثيرة استفادت منها على نحو يفوق المعتاد.

3- لا تعتمد عولمة رأس المال أو التجارة العالمية على وجود التكنولوجيا أو ريادات الأعمال فقط، وإنما يعتمد تحقق الطابع ا لكونى على مبادرات الدول القومية فى تحرير الاقتصاد وإزالة الحدود. ولكى تتمكن الدول من إدارة العولمة كان عليها أن تعمل على تشجيعها بالفعل. ولذلك فإن الدول تمثل فاعلاً أساسيًّا فى عمليات التحرر والعولمة، مايعنى أن الدول القومية لم تختفِ مع العولمة، وكان عليها لكى تبقى أن تتنازل عن بعض من سيادتها.

4- يصعب أن تزيل العولمة كل مايقف أمامها، لأنها تخلق صورًا جديدًا من الثقافة تجمع بين المحلية والكونية، وأخذت النشاطات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية تضرب بجذورها فى المحلية، وأعيد ربطها بالإقليم فى صور جديدة، ولم تعد الثقافات القومية منفصلة عن الثقافات الدولية، وتراجع الخوف من تهديد العولمة للهويات الثقافية.

5- تعتبر الهوية نسقًا اجتماعيًا يتشكل من بناء وقيم وقواعد ومعتقدات وممارسات، يمتثل لها أعضاء النسق. ويتصور الناس هوياتهم من خلال ثقافاتهم التى تعرفهم وتحددهم. وهى عملية تسهم فى بناء معنى لما يفعله الناس من حياتهم ويجعلهم يشعرون بكيانهم. ولذلك قد تأخذ الهوية أشكالاً متباينة، بعضها فردى تجسدها عبارات "أنا البداية ونهاية كل شيء". وبعضها ما نلاحظه فى الواقع من نموذج الهوية الشرعية التى يتم بناؤها تصوريًا من خلال الدولة، مثل الهوية الفرنسية، ونموذج الهوية المقاومة الذى يشعر معه البعض أنهم مرفوضون ثقافيًا أو اجتماعيًا أو سياسيًا، ومن ثم يعانون من ردود أفعال تهميشية ، وكذلك نموذج الهوية المشروع، مثل الحركات النسوية والايكولوجية. وربما ظهرت هناك أشكال أخرى للهوية بعضها ثقافية والأخرى اجتماعية والثالثة سياسية. وتنطوى الهوية الاجتماعية على عمليات التصنيف لفئات ،والانتماء، والمقارنة، والتمييز السيكولوجى. ومع انتماء الأفراد إلى جماعات متعددة، ينمو مركب للهوية يعكس الدرجة التى يتداخل ويتواجه بها الشخص فى جماعات متباينة فى الوقت نفسه الذى يتمتع فيه بالعضوية فى جماعته الداخلية.

6- أثارت فكرة العولمة الثقافية استجابات متعددة وعكست مضامين متناقضة وجسدت أزمة الهوية. فالبعض اعتبرها أداة لإقامة وحدة عالمية، ولم يوافق فريق آخر من الباحثين على ذلك وزعم أن العولمة لم ينجم عنها هوية اقتصادية وسياسية موحدة. وقد توافر فى تراث العلم ودراسة العلاقة بين

العولمة والهوية قائمتان للرأى يركز بعضها على التداعيات السلبية للعولمة، ويهتم الآخر بالتداعيات الإيجابية.

7- تتمثل التداعيات السلبية للعولمة على الهوية فى إصابة الثقافة المحلية بالاضطراب والغزو الثقافى وتآكل القيم التقليدية، وخلق تعددية ثقافية، تتسبب فى وجود صراع ثقافى بين الثقافات المحلية والعالمية ، وهى أداة لفرض الهيمنة الكونية والاستعمار الجديد على بقية بلدان العالم. وتتمثل التداعيات الإيجابية للعولمة الثقافية، فى أن الهوية تعتبر بعدًا هامًّا فى الحياة الاجتماعية وليست فريسة سهلة أو رابطة هشة، وأن الصراعات الثقافية ليس لها آثار مهلكة فى المجتمعات التى تنفتح على العولمة. والواقع أن الآراء التى تركز على التداعيات السلبية للعولمة على الهوية، تستند إلى كتابات الموجة الأولى فى نظرية العولمة، التى تعتبرها ظاهرة تزيل كل شيء فى طريقها، بينما تنطلق الآراء التى تميل إلى التداعيات الإيجابية للعولمة من كتابات الموجة الثالثة فى هذه النظرية التى بلورت مفهوم الجمع بين الكونى والمحلى، ليحل محل مفهوم العولمة.

8- يمثل خطاب هجاء العولمة والتحذير من مخاطرها على هويتنا الثقافية معلمًا أساسيًّا واتجاهاً غالبا فى المحافل العربية، يعكسه نتاج دراسات تناولت العلاقة بين العولمة ومسألة الهوية، واعتبارها تعميماً لنمط من الحياة على الكرة الأرضية كلها وتهديدًا للهوية والأصالة العربية، وهيمنة لدول المركز واندماجًا لأسواق العالم والثقافات فى إطار الرأسمالية، والوطن العربى ليس بمنأى عن التأثيرات التى تهدد هويتها.

9- أن استمرار إدارة علاقتنا مع العالم وفق منهج الهجاء والإدانة والتنديد لم يعد يثمر نتائج إيجابية، لأن هناك خطرًا أكبر نعانى منه هو خطر التهميش، والواقع أن هويتنا أقوى من أن تتآكل وثقافتنا أكثر صلابة من أن تذوب، وعلينا أن نبحث عن بديل لهذه الرؤية التقليدية ينحاز إلى الاتجاه العقلانى،

وضرورة البحث عن العوامل الحقيقية التى تكرس خطر التهميش الذى تعانيه أمتنا العربية.

10- هناك وسائل خلاقة للتفاعل مع العولمة قد تجنبنا خطر التهميش، نجدها فى التجارب العالمية الناجحة مثل النموذج اليابانى، وما ينطوى عليه من إيجابيات ما قد يلهمها فى تعزيز دور الدولة القومية واحتفاظها بقدر معقول من القوة يساعدها على الاندماج فى المجتمع الدولى والاستفادة من فرص العولمة. وبما أن المعرفة أصبحت هى الأساس الأول فى توليد الثروة والنمو ، أصبح لزامًا على الدول العربية أن تعيد تقييم أوضاعها العلمية والتكنولوجيا، وتقيم مجتمع المعرفة الذى يسمح بالاندماج فى العالم، وتجنب خطر التهميش.

ولعل أهم ما تثيره هذه الاستنتاجات حول العولمة وأزمة الهوية، وسبل التعامل الخلاق معها، وما قد يتطلب الاهتمام من جانب الباحثين لقضايا مثل: التحول فى السياسات من الاستبعاد إلى الاندماج الاجتماعى ومسائل التمكين الاجتماعى وبناء قدرات الشباب على وجه الخصوص ، وكذلك مشاكل الأمن الاجتماعى والاقتصادى للفقراء، وتنمية رأس المال النوعى بكل صوره الثقافية والاجتماعية، والمعرفية، وكيف تسهم هذه القضايا فى عملية التحول نحو اقتصاد المعرفة وأيضًا مجتمع المعرفة.

قائمة المراجع:

أولاً: المراجع باللغة العربية:

1. محمود، سمايلى، وسعيد، بن عمارة، (أبريل 2013). إشكالية الهوية العربية فى مواجهة تحديات العولمة. <https://om77.net/forums/thread/828705->

%D8%A5%D8%B4%D9%83%D8%A7%D9%84%D9%8A
%D8%A9%D8%A7%D9%84%D9%87%D9%88%D9%8A
%D8%A9%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8
%D9%8A%D8%A9%D9%81%D9%8A%D9%85%D9%88
%D8%A7%D8%AC%D9%87%D8%A9%D8%AA%D8%A
D%D8%AF%D9%8A%D8%A7%D8%AA%D8%A7%D9%
84%D8%B9%D9%88%D9%84%D9%85%D8%A9/>.

استرجاع: 2016/6/5.

2. جلبى، على عبد الرازق ، وأحمد، هانى خميس ، (2011). العولمة والحياة اليومية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
3. الجابرى، محمد عابد، (2013) العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجى، تعريفات .. ومقاربات.

<http://www.minculture.gov.ma/index.php/2010-01-11-01-40-04/etudes-essaie/251-mohamed-abid-el-jabri-monsialisation>.

استرجاع: 2016/6/5.

ثانيًا: المراجع باللغة الأجنبية:

1. A, Naz, et al. (2011). The Crisis of Identity. Globalization and its Impacts on Socio-Cultural and Psycho Logical Identity Among Pakhtuns of Khyber Pakhtin Kura Pakistan, International Journal of Academic Research In Business and Social, April 2011. Vol: 1; No:1.
2. L. Martell. (2007), The third wave in Globalization theory. In: International Studies Review, Vol 9, NO,2, Summer, 2007.
3. M. Castells, (2010), Globalization & Identity. Quaderns de la Mediterrània 14, 2010: 89-98. <http://www.iemed.org/publicacions/quaderns/14/qm14_pdf/15.pdf >. Accessed: 1st January 2016.
4. Culture Identity. 31 March 2010 <http : // en. Wikipedia org/wiki/ci>.
5. Social Identity Complexity. 8 April 2010 < http : // en. Wikipedia org/wiki/ci >.
6. ***